لماذا محمد .. ؟

شعار١: لن يبرح هذا الدين قائمًا ... حتى تقوم الساعة

(صحيح مسلم رقم [١٧٢ / ١٩٢٢]).

شعار٢: لا تفضلوا بين أنبياء الله

(البخاري رقم [٣٤١٤]، ومسلم رقم [١٥٩ / ٢٣٧٣]).

- ١ -

لقد تعرضنا لثلاث عرائض اتهام يرفعها الغرب ضد الإسلام: حقوق الإنسان، والديمقراطية، ودور المرأة. حان الوقت الآن لمناقشة بعض الاحتجاجات التي يقدمها العالم الإسلامي للغرب. بما أن الإسلام دين، والدين هو البعد الآخر لهذا العالم، فينبغي أن نبدأ بأمنيتين ـ لهما صبغة دينية ـ يتمناهما المسلمون. أولاهما: الاعتراف بمحمد، وثانيتهما: إسقاط صفة الألوهية عن المسيح ويتبع ذلك موضوع ذو صبغة عملية، ألا وهي العنصرية.

- ٢ -

غالبًا ما لا نملك تفسيرًا لمشيئة الله. ولكن من الملائم أن يتساءل، ليس المسيحيون وحدهم بل كذلك المسلمون، خاصة في موطن هيجل: لماذا سير الله تاريخ الدين كما حدث؟

يمكن للمسيحيين أن يتساءلوا: لمَ كان ميلاد المسيح في الشرق الأدنى على حدود الإمبراطورية الرومانية؟ ولماذا ولد المسيح يهوديًا

يتحدث الآرامية؟ ويطرح المسلمون أسئلة مشابهة:لماذا اختير محمد ﷺ الأمي بالذات في بلاد العرب في القرن السابع الميلادي ليكون رسول الله حاملاً الرسالة والدين الخاتم بالعربية لينشرها في العالم كله؟

وكما أن مشيئة الله لا تفسير مضمون لدينا لها، فإن إجابات مثل هذه الأسئلة هي ذات طبيعة تأملية. ولكنه ليس من قبيل الخروج عن الدين أن يجتهد المرء ليتوصل إلى إجابات، بل على النقيض، فإن الله يأمر ـ من خلال النصوص التي وردت في القرآن ـ المؤمنين بالتفكير والتأمل وإعمال العقل (القرآن هو النص المقدس الوحيد ـ بين الأديان الثلاثة ـ الذي يحث على ذلك).

هناك مجموعة من الأسباب الوجيهة ـ من وجهة نظري ـ للظروف التاريخية التي أحاطت ببعثة الرسول العربي محمد ﷺ فلنبدأ بالجغرافية: كانت بلاد العرب في القرن السابع الميلادي تقع خارج منطقة نفوذ القوتين العظميين، الإمبراطورية البيزنطية، والإمبراطورية الفارسية التي امتدت سلطتها حتى اليمن. لقد كان هناك صراع دائر بين الإمبراطورية الرومانية الشرقية ذات الديانة المسيحية، وعلى رأسها الإمبراطور هيرقليوس الأول من ناحية، وبين الإمبراطورية الفارسية الساسانيةالتي يحكمها الشاه كسرى الثاني من ناحية أخرى، ولقد شهد عصر هذا الحاكم صعود نجم الديانة الفارسية الثنائية حيث تضم الزرادشتية والمازدكية. (أزاحت هذه الديانة الساسانية وانتشرت في إيران والهند).

فإذا كان الرسول قد بعث بهذا الدين الجماعي الجديد ـ الإسلام ـ وهو الدين الذي يعادي نظام تلك الممالك والملوك، فكيف كانت تتاح له الفرصة داخل هذه الإمبراطورية أو تلك؟

لم يكن هناك موقع جغرافي أفضل من شبه الجزيرة العربية، وبالذات في الحجاز، هذه المنطقة التي تخرج عن نطاق نفوذ الإمبراطوريتين في ذلك الوقت، ليتمكن الإسلام من تكوين كيان أيديولوجي جديد قبل أن تنتبه إليه إحدى القوتين، ناهيك عن التفكير في التدخل والهجوم على هذا الكيان الوليد. فعندما أرسل الرسول ﷺ عام ٦٢٨ مبعوثين حاملين رسائله إلى حكام المناطق الواقعة حول الحجاز، كان الوقت قد تأخر على مجرد التفكير في محاولة إجهاض هذا الكيان الجديد.

ولكن بالرغم من بُعد الحجاز عن متناول أيدي السلطتين العظميين، فإنه كان يتمتع من وجهة نظر أخرى بموقع جيواستراتيجي بالغ الأهمية، كما سيتضح فيما بعد عندما تنطلق الفتوحات منه إلى أنحاء العالم كافة، حيث يتمتع بموقع وسط يبعد عن المغرب وإنجلترا بالمقدار الذي يبعد به عن الهند والصين.

وهناك سبب معقول ومقبول منطقياً لنزول القرآن باللغة العربية. ففي هذا الزمن كانت اللغات المتداولة هي الرومانية واليونانية والفارسية والعبرية. وكانت هذه اللغات ـ وهي لغات الديانات السابقة ـ قد استنفدت في هذا السياق وباتت معزولة بأحكامها.

ولقد كانت الديانة الجديدة والرسالة التي تحملها والتي ستأتي بتحول برجماتي جديد إلى العالم في حاجة إلى لغة عذرية على المستوى الديني والفلسفي، لغة لم تستنفد بعد، يأتي بها القرآن. وأهمية ذلك تتضح إذا ما نظرنا إلى ترجمات للقرآن يقوم بها مستشرقون حسنو النية، عندما يقحمون عليه مفردات تعبر عن الخلفية المسيحية الدينية والفلسفية.

كانت اللغة العربية التي تتحدث بها قبيلة قريش بمكة قد تطورت في القرن السابع الميلادي، حتى صارت لغة فصحى بليغة تصلح لأن تكون وسيلة ووعاء لغويًا للرسالة الجديدة. ولكي نتمكن من فهم هذا، لا بد لنا من التعرف عن قرب عن هذه اللغة الذهنية وفحصها بدقة أكثر. ولكنني سأسوق بعض الأمثلة الدالة: فاللغة العربية قادرة على التعبير زمنيًا عن مقولات غير محددة. ومن الممكن كذلك أن تعبر هذه اللغة بصيغة الماضي عن أشياء مستقبلية يقينية الوقوع، كما لو أنها قد حدثت فعلاً.

وأخيرًا يمكن أن تتخذ كل كلمة عربية ثمانية أشكال سواء تحقق معناها في الحقيقة أم لا. وهذا يتيح للغة العربية أن تكون مهيأة لتفكير فلسفي تأملي وعلمي - فرضي.

ولقد كان توقيت الوحي القرآني ذا مغزى عميق؛ لذا فقد بات واضحًا منذ القرن السادس الميلادي أن المسيحيين واليهود المتفرقين في جميع أنحاء العالم، عاجزون عن تصحيح التحريفات التي ألحقوها بدياناتهم، وبخاصة تصور شعب الله المختار عند اليهود، والطبيعة الإلهية للمسيح عند المسيحيين.

-٣-

ولقد ظهرت دراسات مسيحية جديدة تم تدوينها[١]. هناك فهم - يهودي - مسيحي لطبيعة المسيح يتطابق مع المفهوم الإسلامي. فلم يَعْدُدْ هذا الفهم المسيح الذي لم يطابق نفسه بالله أبدًا ولم يستخدم صيغة «أنا» عندما كان يعني الله - إلا رسولاً يهودياً إصلاحيًا مهماً. وهذا يماثل ما جاء بالقرآن في الآية ٧٥ من سورة المائدة .. ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ..﴾. ولم تعرف المسيحية الأولى فكرة الثالوث، أو حتى تلميحات عنها، حتى عند بولس الرسول المؤسس لفكرة الثالوث في الرسالة الأولى ليوحنا (٥ - ٧) لم يظهر إلا عام ٣٨٠ م في إسبانيا وهي: «ثلاث موجودون هم شهود في السماء: الأب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلاث هم واحد».

ولقد تمكن الباحثون منذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا من إثبات أن هذه الآية (بالإضافة إلى الإصحاح الذي يتحدث عن الزانية في إنجيل يوحنا) تعد من حالات التزوير البينة والواضحة والمهمة جدًا في العهد الجديد[٢]. وإنك لتجد على سبيل المثال في الطبعة الكاثوليكية للعهد الجديد التي أحتفظ بها (صرح بطبعها أسقف مدينة روتنبورج Rotten-burg عام ١٩٤٠) هذه الفقرة موضع الخلاف في الرسالة الأولى ليوحنا وهي بين قوسين معكوفيتين، وإشارة في الهامش تقول: «هذه الفقرة موضوعها ومضمونها صحيح ولكنها إضافة وتكملة متأخرة».

---

(١) انظر Lüdemann (١٩٩٥) Deschner. هناك هوامش كثيرة حول مناقشة المسيحية بتفصيلات أدق في الفصل القادم.

(٢) من ذلك الوقت يبدأ الإصحاح الثامن من إنجيل يوحنا في بعض الطبعات الإنجيلية للعهد الجديد بدءًا بالآية ١٢ .

ولقد كان غالبية الأساقفة في الغرب المسيحي وكذلك في الشرق المسيحي حتى القرن الرابع، متفقين مع رأي القسيس السكندري آريوس Arius (٢٦٠ ـ ٣٣٦) القائل بأن المسيح مخلوق مباشر من الله (ولذلك فهو مميز على سائر البشر)، ولكنه ليس الله كما أنه لا يتمتع بحياة أبدية. وكان في هذا الوقت ـ أي قبل القرن الرابع ـ كل من يعتنق الإيمان الذي أقره مجمع نيقيه فيما بعد، يجازف بأن تلصق به تهمة التجديف.

ومنذ القرن الرابع الميلادي، أصبحت مناقشة طبيعة المسيح باحتمالاتها الأربعة من الأمور الشهيرة في كل من القسطنطينية والإسكندرية، وهذه الاحتمالات الأربعة هي:

ـ المسيح ذو طبيعة واحدة: ـ إله فقط: هذا الفكر الذي يعتنقه ويمثله إلى الآن القبط والأرمن.

ـ إنسان فقط: هذا الفكر يعتنقه المسيحيون اليهود والأريسيون نسبة إلى آريوس الذي قال بآدمية المسيح)، وهم الموحدون.

ـ ذو طبيعتين منفصلتين: إله وإنسان. الفكر الذي يقول بالطبيعتين والذي يعتنقه منذ القرنين الرابع والخامس الميلاديين.

وتكتسب الفكرتان الأولى والثانية أهمية في التاريخ الفكري؛ لأن لهما امتداد في الإسلام وفي النقد الموجه لصورة المسيح المعاصرة. لقد تطورت الأورثوذوكسية المسيحية من خلال خلافها مع فكر آريوس الذي يقول: إن الحديث عن كون المسيح ابن الله، لا يكون إلا بشكل مجازي.

ولقد كان المجمع الأول الذي عقد في نيقيه في الفترة من ١٩ يونيو حتى ٢٥ أغسطس عام ٣٢٥ معلماً فارقاً في تطور المسيحية؛ لأنه عارض تمامًا فكرة آريوس عن المسيح، وأقر أن المسيح من جوهر الأب، وأنهُ ولد ولم يُخلق، وأنه يتساوى في الجوهر والكيان مع الإله الأب.

لم يمنع هذا من انتشار الآريانية في الفترة من ٣٣٧ ـ ٣٦١، حتى صارت الفكر الرسمي لبيزنطة، والفكر المسيطر لقرون عديدة على مسيحية الشعوب الجرمانية، ولكن بعد ذلك اكتسب الفكر الذي أقره مجمع نيقيه قوة كبيرة، وتوطد منذ عام ٤٥١ بسبب انعقاد المجمع السكني الرابع في إسكدار. في هذه المرة أدانت الكنيسة الفكر القائل بطبيعة واحدة للمسيح (رقم ١) القائل بأن المسيح إليه فقط (بجسد يبدو في صورة آدمية)، وعارضت هذا الرأي وقالت بنقيضه وهو فرضية وجود اتحاد بين المسيح والله، والاثنين في المسيح «غير مختلط وغير منفصل». وهذه المقولة التي تبدو متناقضة، ظلت إلى يومنا هذا الدين الرسمي المعترف به كاثوليكياً.

وفي هذه الأثناء ظهرت ـ بتأثيرات من فكرة الثالوث في الميثولوجية المصرية والأفلاطونية السكندرية الجديدة ـ ظهرت فكرة الثالوث، وأضيف إلى الأب والأبن الروح القدس.

وبتأثير من موضة لاهوت الروح، كان المجمع الثاني في القسطنطينية قد شخص فكرة «الكلمة» (Logas) في عام ٣٨١، وبهذا تسللت تصورات هلّينية إلى المسيحية، واكتسبت من خلال ترسيخها لفكرة الثالوث موقعاً مسيطراً.

أما وضع الشخص الإلهي الثالث في العهد الثالث، فلا يمثل أي صعوبة، فكل ما ينبغي تغييره هو فهم كلمة بوصفها روح الله، على أنها الروح القدس.

لقد كان المجمع السكني الأول في نيقيه ـ كما نعلم اليوم ـ أهم المجمعات على الإطلاق حتى المجمع ٢٢، الذي عقد في الفاتيكان القرن الماضي. ولكن ذلك المجمع البالغ الأهمية، لم يدع لعقده البابا أو أسقف روما، ولكن دعا لعقده شخص وثني غير معمد ولا علم له باللاهوت، هو القيصر قسطنطين الكبير. ولم يتم هذا المجمع في كاتدرائية نيقيه، ولكن في مقر الإمبراطور الصيفي، ولم يرأس هذا المجمع أحد في من رجال الدين الحاضرين. كما أن الإمبراطور هو الذي قدم اقتراح الصيغة القائلة بأن جوهر الله هو جوهر المسيح، وأنهما متماثلان. وهذا الاقتراح لم يصدر عن اهتمام ديني، ولكن رغبة منه في بعض الاتفاق الديني الداخلي بعد سنوات طويلة من الخلافات الدينية الحادة. ولقد رأى القيصر أن صيغة (المسيح = الله) صيغة مناسبة لحل الخلافات، ولم يفكر في كونها محرفة، فالأباطرة الرومان كانوا كثيرًا ما يحبون وضع أنفسهم في مرتبة مساوية للآلهة.

لا تبعد المسافة كثيراً في إستنبول حتى نيفيه (اسمها الحالي إزنك). وكلما ذهبت هناك أصابتني رعدة في البدن بالتفكير في نتائج ما وقع في هذا المكان عام ٣٢٥ . فلم تتم مناقشة الأمر في هذا المجمع بصراحة، ولكن تم فرض الرأي الإمبراطوري، وبذلك أصبح عندنا أمر إمبراطوري نتيجة لوجود خلافات وصراعات قوى، وليس رأيًا مبنيًا على تفسير النصوص المقدسة.

بعد ذلك تم القضاء تمامًا على الكتابات التي تعارض هذا الرأي، كما تم إلغاء فكر الأريسيين والمسيحيين من ذاكرة الناس تمامًا، وتم قطع أواصر الصلة تمامًا بين المسيحية واليهودية. وبناءً على رفض بولس إجراء عملية الطهارة لمن يعتنق المسيحية، قامت قطيعة لاهوتية مع فكر التوحيد السامي.

لقد تم الإعلان عن الله ! ولكن كذلك أصبح وجود الكنيسة المقدسة واضحًا ومسيطرًا، وأخذ المسيحيون ينظرون إلى اليهودية على أنها مجرد تمهيد للمسيحية، وعَدَّ اليهود المسيحية بدعة وزندقة ومروقاً عن اليهودية. ولم يرد في الفكر المسيحي بعد ذلك لقرون طويلة محاولة لتصحيح ما جاء في إزنك عن طريق مراجعة المسيحية والفكر المسيحي لنفسه. بالعكس، أصبح هذا الفكر المسيحي المتطرف مطالبًا بحماية نفسه ضد فكر أكثر تطرفًا.

ولذلك كان لابد أن تأتي إرهاصات إعادة إحياء الفكر التوحيدي الإبراهيمي من خارج هذه المعارك من بلاد العرب، على يد رسول عربي يعيد دين إبراهيم وموسى وعيسى، يعيد دين الله كما أراد له وكما ينبغي له.

هذا يفسر مكان وزمان ومضمون الرسالة التي بعث بها محمد، والتي ورد في القرآن عنها في سورة الأحقاف الآية ٩: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ . لقد كان محمد آخر الرسل، هدف رسالته كان إعادة الوحدانية النقية، الإيمان بالله الواحد دين إبراهيم، الدين القيم. هذا

الدين الذي يتطابق مع الفطرة الإنسانية؛ ولذلك فقد كان محمد يعلم المسلمين بناء على ما ورد في القرآن:

- الله واحد ليس كمثله شيء.
- يرعى العالم.
- يمكن التعرف عليه من خلال الرسالات والكتب السماوية.
- واجب الإنسان أن يسلم نفسه لله ويطيع أوامره.
- أن هناك بعثًا بعد الموت، وأن الآخرة حق، وعندها يحاسب البشر ويجزون على أعمالهم.

فالإسلام يرفض رفضًا تامًا وغير قابل للمساومة أو للحلول الوسط فكرة الثالوث المقدس والتجسيد. لقد ارتكزت محاولة الإسلام في القرن السابع الميلادي لتصحيح المسيحية التي توطدت أركانها في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، بأن وضع المسيحية المستقاة في القرآن في مقابلها، وصور القرآن المسيح كما يلي:

- إن المسيح خُلق مثله مثل آدم. والآيات الدالة على ذلك تجدها في سورة آل عمران الآية ٤٧: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

وكذلك الآية ٥٩: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾. وكذلك في سورة المؤمنون الآية ٩١: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾. وكذلك في سورة الإخلاص الآية ٣: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾.

ـ جاء المسيح بولادة إعجازية من مريم العذراء، كما ورد في سورة آل عمران الآية ٤٧ .

ـ جاء المسيح ليؤكد ما سبقه من دين ويعمل على إصلاحه، كما ورد في سورة آل عمران الآية ٥٠: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

ـ وهو رسول أتى بمعجزات، كما ورد في سورة المائدة الآية ١١٠: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

ومثله في ذلك مثل مجموعة أخرى من الرسل، كما جاء ذكر ذلك في الآية ١٣٦ من سورةالبقرة، والآية ٨٤ من سورة آل عمران، والآية ٨٥ من سورة الأنعام.

ـ ليس شخصًا إلهاً في ثالوث، وجاء هذا في الآية ١٧١ من سورة النساء والآية ٧٢ و٧٣ من سورة المائدة، وكذلك الآية ٣٠ من سورة التوبة، والآية ٣٥ من سورة مريم.

ـ المسيح عبد الله ورسوله وليس ابنه.

ـ لم يلق حتفه صلبًا، وجاء ذلك في الآيتين ١٥٧ و١٥٨ من سورة النساء.

obeikandi.com

نتبين مما سبق أن المسلمين يدافعون عن المسيحية الأولى، مسيحية اليهود، فيما عدا النقطتين الأخيرتين.

أما فيما يخص هاتين النقطتين موضع الخلاف، فإن أي مسلم لا يردد سورة أكثر من ترديده لسورة الإخلاص ـ هذا إذا ما استثنينا سورة الفاتحة ـ والتي استنادًا إلى كلام الرسول تعادل ثلث القرآن[٣]. وهذه السورة رفض موضوعي وقاطع لما أقره مجمع إزنك الكنسي.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾.

ولقد أيقن الكثير من المسيحيين في العقدين الأخيرين من هذا الزمن خطأ مقولة أن المسيح ابن الله، وأن هذه المقولة كما جاءت في القرآن من الفظائع كما ورد في سورة الكهف الآية ٤: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾.

وكما ورد في سورة مريم الآيتين ٨٨ و٨٩: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ ولقد صاغ الفيلسوف Sören Kierkegaard هذا الأمر بحدةٍ لا يضاهيه فيها أحد عندما قال: «إن المأساة الأساسية للمسيحية هي الدين المسيحي نفسه، أي وعظ الناس بفكرة الرب ـ الإنسان». لأنه بهذا يتم حذف الفارق النوعي لطبيعة الأشياء بين الإنسان والإله، ولقد ملك هذا الفيلسوف الدانماركي من الشجاعة ما جعله يقول: «أن فكرة الإله ـ الإنسان هذه جعلت المسيحية في غاية الوقاحة، فهي تخاطب الإله بأنت (أي صيغة احترام) كما لو كان أحد الأقارب»[٤].

---

(٣) البخاري جزء٦ رقم ٥٣٣، ٥٣٤ / جزء رقم ٦٣٨ / جزء رقم ٦٣٨، مسلم رقم ١٧٦٩ ـ ١٧٧٣ .
(٤) Ki erkegaard ص ٦٠ / ١٥٩ .

ما سبق ذكره عن مساواة المسيح بالله نقوله كذلك على الرفض القرآني لفكرة التثليث: فسورة النساء تقول في آيتها ١٧١: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾.

يندهش المسلمون من المعرفة الواسعة والفريزة بطبيعة الله ونشاطه التي يدعيها المسيحيون، خاصة أنهم يحاولون حجب فكرة التثليث عن أي محاولة تفسير عقلانية لأنها سر وإعجاز.

وهذه الدهشة مسوَّغة، خاصة إذا استمعوا إلى تفسيرات مثل: إن كلا من الشخصيات الثلاث الإلهية المجمعة في الثالوث، تقوم بما يجب عليها، بينما كل فعل الله خارج هذه الإلهية المثلثة هو فعل جماعي للشخصيات الثلاث الإلهية(٥).

والأمر نفسه يحدث عندما نتحدث عن التركيب الآتي: «ليس هناك ماهية للتثليث ولكن هناك تثليث».

أما سر العلاقة الشخصية المتداخلة بين الأب والأبن والروح القدس، فيظل دائمًا وكاملاً في الله ذاته، أما أفعال الله الخارجية فتنطلق من الشخصيات الثلاث مثل الانطلاق من مبدأ واحد(٦).

---

(٥) Ulrich Schoen في Kirsteص٢٧ .

(٦) Borrmans ص١١١ . الا يود المرء أن يقول له كما قال لـ Schoen «ليتك صمت!».

وتمثل آراء الكاردينال Nicolaus von Kues (المتوفى عام ١٤٦٤) صوتًا منفردًا في المناقشات التي دارات حول التثليث، عندما دعا إلى ضرورة مراجعة التفكير في هذا الأمر ـ في كلمات صاغها Kurt Falsch «الطريقة الذكية لتكون إلهًا» لأن كوزانوس يقرر بسهولة ويسر: «لابد أن يكون الله ثلاثيًا إذا ما كان هو المبدأ الذكي للعالم إذا كان يعلم نفسه إذا كان هو الحب»(٧).

أما بالنسبة للنقطة الثانية، أي الصلب، فلم تكتسب أهميتها إلا من خلال بولس الرسول، وذلك على أساس نظرياته القائلة بإرث الخطيئة الخلاص والموت للمخلص، وكلها تصورات لا يمكن جمعها أو أن تقترب من صورة الإله في الإسلام.

فالإسلام يعلمنا قبل أن يقوم jürgan Moltmon بإصدار كتابه «الرب المصلوب» عن مسألة الصلب هذه بتلك الآيات من سورة النساء (الآيات ١٥٧ ـ ١٥٨).

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. إذا ما قرأنا هاتين الآيتين قراءة متمعنة ومتأنية مدققين في الكلمات، لتبينا ضمير الغائب للجميع أي «هم» الذي يظهر في قتلو(هـ) وصلبو(هـ)، وهذا يعني أن الله الآمر بالحياة والموت هو من جعل المسيح يموت وليس اليهود.

---

(٧) Klostermann, Nicolaus von Kues, Kurt Flasch: فرانكفورت ١٩٩٨ نقلاً عن Martina Bretz فيFAZ ـ يوم ٣ / ١١ / ١٩٩٨ ص٢٤ .

Obeikandi.com

وتقول هذه الآيات: إن المسيح لم يمت مصلوبًا ولكن مات فيما بعد، ومما يؤيد هذا العرض القرآني لمسألة الصلب ويجعلنا نصدقه، أن الأناجيل الأربعة تختلف في مسألة الصلب بشكل لا يجعلنا نصدق أياً منها أو نثق بأحدها. أما أن المسيح لم يوثق في الصليب بل سمر،فهذه الرواية عرفت أول ما عرفت في القرن الثالث الميلادي، خاصة من خلال Tertullian (١٦٠ ـ ٢٢٠) ترتوليان، ولكن ليس على أساس نص وارد في الأناجيل، بل على الآيات ١٧ ـ ١٩ التي وردت في المزمار ٢٢: «ثقبوا يدي ورجلي. صرت لهزالي أحصي عظامي ... يتقاسمون ثيابي .. وعلى لباسي يلقون قرعة».

وفي هذه اللحظة الزمنية لم تكن حكاية «توماس غير المؤمن» قد أضيفت إلى العهد الجديد.

وبطبيعة الأمر لم يكن ترتوليان ليعلم بوجود الكفن الذي يصور عملية الصلب. ولقد ثبت أن هذا الكفن قطعة مزورة من القرن ١٣ أو ١٤[٨]، كما تعترف الكنيسة الكاثوليكية منذ عام ١٩٨٨ .

إذن يمكننا أن نقول: إن الصلبان وعليهما المسيح والتي تشحذ خيالنا ما هي إلا تخيل، خاصة أن هذه الصلبان لا تتطابق مع الصلبان التي كانت شائعة في عهد المسيح.

ويمكنني بطبيعة الحال أن أتفق مع Paul Schwarzenau الذي ذكر أن القرآن احتجاج على المفهوم المسيحي للصلب[٩] . وذلك في كتابه «علم القرآن للمسيحيين».

---

(٨) بناءً على طريقة الإشعاع الكربونى، فإن الكفن يعود إلى الفترة ما بين ١٢٦٠ ـ ١٣٩٠ (FAZ تاريخ ١٤ / ١٠ / ١٩٨٨).

(٩) Schwarzenau (١٩٨٢) ص ١١٠ .

لقد استطاع بولس الرسول أن يحول الفشل الذى ذاقته جماعة المسيحيين الأوائل إلى عملية إنقاذ وخلاص، وجعل من الصليب رمزاً لها. وبذلك وضع الصليب في مركز الإنجيل المقروء، والذي يعظ به وليس المتكوب، حتى صار الصليب علامة الانتصار المسيحية. ولقد أدت نظرية الخلاص هذه إلى إحداث فرقة عظيمة؛ لأن كلا من اليهود والمسلمين عَدُّوها تجديفاً، فأي رب هذا الذى يواجه تطوراً خاطئاً بولادة ابن له، ثم التضحية القاسية المهينة بهذا الابن؟!

ولقد ظل المسلمون متمسكين طيلة القرون بما ورد في القرآن عن المسيحية ونبيها عيسى، حتى أولئك المحدثين المسلمين و«المسلمين بالميلاد» بدءاً من علي عبد الرازق ومعمر القذافي ومحمد سعيد العشماوي وصولاً إلى فرج فوده ومحمد أركون وبسام طيبي، لا يمسون واحداً: التصحيح القرآني لصورة المسيح التي وردت لاحقًا في وقت لاحق ومتأخر، وليس في بدايات المسيحية.

❁ ❁ ❁

ومجمل القول: إن المسلمين والمسيحيين يشكون اليوم معاً ـ من أن الغرب يعاني منذ ما يزيد على ١٥٠ عامًا من الإلحاد، والاغتراب عن الكنيسة واللاأدرية، وكذلك الهروب إلى ديانات خاصة غير مفهومة ومتقوقعة على نفسها من فلسفة حب الإنسان إلى الديانات التى تقدس الربات والديانات ذات الصبغة النسائية والبوذية؛لأن المسيحيين والمسلمين في قارب واحد في خضم هذا البحر الهائل المعاصر من العداء للدين والشديد المادية.

ولكن هل من الواضح للمسيحيين أن هذا التطور السلبي في العصر الحديث شديد الصلة بما حدث في إزنك؟ وأن الوضع اليوم ما هو إلا نتيجة متأخرة لما ألم بالمسيحية في إزنك؟ وقد كتب محمد أسد ـ أبرز المسلمين الأوروبيين في القرن العشرين في كتابه الصغير الهام «الإسلام في مفترق الطرق» عام ١٩٣٤: إن أهم العوامل الفكرية التى تعوق التجديد والإحياء الديني في أوروبا هو الرؤية المعاصرة لطبيعة المسيح على أنه ابن الرب. فالمفكرون الأوروبيون ينفرون غريزيًا من صورة الإله التى تروجها تعاليم الكنيسة، ولكن هذا هو التصور الوحيد المألوف لهم؛ ولذلك يدؤوا برفض وإنكار صورة الرب ومعها كافة الديانات»[١٠]. فهل إزنك هي جذر الإلحاد؟

وبالنظر إلى المرارة والتوترات التي حكمت تاريخ العلاقات المسيحية ـ الإسلامية، وعدم إمكانية توحيد آرائهم حول المسيحية، فقد تم إعلان الكنيسة الكاثوليكية عن تخليها عن عَدِّ الإسلام عدوّاً لها في المجتمع الفاتيكاني الثاني عام ١٩٦٤، وتم تكوين لجنة بابوية لشؤون العلاقات مع الديانات غير المسيحية، وضمت هذه اللجنة رجال دين على دراية واسعة وعلم غزير بالإسلام، ويكنون له بعض الإعجاب. وفي ٢٨ / ١٠ / ١٩٨٥ أصدر الباب بول السادس المنشور البابوى الذي حمل عنوان «Nostra Aetate»، وقد جاء في هذا المنشور أن الكنيسة «تحترم المسلمين الذين يعبدون الله الحي، الخالد، الرحيم، القوي، خالق السموات والأرض».

(١٠) أسد: الإسلام في مفترق الطرق ص ٥١ ، ٥٢ Islam at the Crossroads .

ولقد طالبت هذه الوثيقة المسلمين والمسيحيين بنسيان عداوات الماضي. وعليهم ـ أي المسلمين والمسيحيين ـ أن «يجتهدوا للتوصل إلى تفاهم وفهم متبادل»، و«أن يعملوا سوياً لحماية السلام وإقرار العدالة الاجتماعية ومن ثم حماية الأخلاق وسلام وحرية البشر كافة»[١١].

وفي ظل هذه التوجهات، ومن منطلق هذا الفكر، توجه الباب يوحنا بولس الثاني في ١٩ أغسطس عام ١٩٨٥ بخطابه إلى الشباب المغربي المجتمع في ستاد الدار البيضاء. ولقد ردد في أثناء هذا الخطاب كلمات تكاد تكون هي ذاتها كلمات الآية التي وردت في القرآن، والتي تُعَدُّ الإعلان القائل بالتعددية الدينية والتسامح فيها وتلك الآية هى ٤٨ التى وردت في سورة المائدة، وقال: «إننا نؤمن بنفس الإله، الإله الواحد»[١٢].

لقد وضعت الكنيسة الكاثوليكية بمبادرتها هذه لتطبيع علاقاتها مع الإسلام نفسها في طليعة العالم المسيحي قبل المجلس الكنسي العالمي وقبل كنائس مسيحية أرثوذكسية أخرى. وفي الأحوال كافة، فإن الفاتيكان قام بخطوة مهمة واحدة فقط على هذا الطريق؛ لأن المنشور البابوى وخطاب البابا في الدار البيضاء تجنبا ذكر رسول الإسلام، ذلك الدين الذي حترمونه كثيراً؛ ولذلك السبب يتفق كل من Hans Kung والأب Michel Lelong على أن الكنيسة لا تزال بعيدة تمامًا عن استخلاص النتائج اللاهوتية المترتبة على المنشور البابوي[١٣]. ويتساءل : Schoen Ulrich«لماذا لا يتجرأ أحد على ذكر محمد بكلمة واحدة»[١٤].

---

(١١) مقطع من Lelong ص ١٣ ، ١٤ .
(١٢) مقطع من Lelong ص ١٨ ، ٢٠ .
(١٣) Lelong ص ٢٤ .
(١٤) Schoen في Kirste ص٣٦ .

وإنني أطرح هنا سؤالاً إنشائياً:

إنه من الواضح أن الكنيسة لا تزال تحرم محمدًا من إعادة الثقة به وتصحيح صورته ورد الاعتبار له؛ لأنها لا تزال أسيرة إنكارها له. ولن يجرؤ أي شخص من المعسكر المسيحي، حتى وإن كان لا يؤمن بأن الإسلام عقيدة مضللة وأن محمداً دجال ومحتال، لا يستطيع أن يتخيل أن يعترف بالقرآن ككتاب مقدس. مثله مثل الكتاب المقدس (للعهدين القديم والجديد)؛ لأن الاعتراف بمحمد رسولاً، أي وعاء لوحي الله، يعني ضمنًا الاعتراف بالقرآن الكريم ككتابَ مقدس والوصول إلى هذه الخطوة، يتطلب دراسة واسعة وتعاملاً حميماً مع القرآن.

ويغفل الغرب عن حقيقة وهي أن الإسلام يهدف إلى أن يعيد المسيحية لتقف على قدميها، بدلاً من الوقوف على رأسها، وأن الإسلام يمكن أن يكون ذا نفع هائل لإعادة الصحة إلى الحضارة الغربية. ولكن هذا ليس مقصدي هنا، ولكن ألا تستدعي مجرد أصول المعاملة المهذبة واللياقة، عدم تجاهل رسول يؤمن به ما يزيد على مليار إنسان ويحترمونه؟[١٥].

❁ ❁ ❁

(١٥) Schwarzenau (١٩٩١) ص ٥٠٤ .